



٥٨- باب قول الله - تعلى :- ﴿يُظَنُّونَ بِاللَّهِ
غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ الْأَمْرِ
مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ...﴾ [آل عمران: ١٥٤] الآية.

وَقَوْلِهِ: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦] الآية.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى:

«فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ،
وَفُسِّرَ بِظَنِّهِمْ أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَدْرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ. ففُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ،
وَإِنْكَارِ الْقَدْرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يَتِمَّ أَمْرُ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُتَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ «الْفَتْحِ». وَإِنَّمَا
كَانَ هَذَا ظَنُّ السَّوْءِ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرٍ مَا يَلِيْقُ بِهِ - سُبْحَانَهُ -، وَمَا يَلِيْقُ بِحِكْمَتِهِ
وَوَعْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَفْرَغَةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ
أَنَّ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدْرَهُ لِحِكْمَةِ بِالْغَةِ يَسْتَحِقُّ

عَلَيْهَا الْحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةِ مُجَرَّدَةٍ؛ ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنًّا سَوْءًا فِيمَا يَخْتَصُّ بِهَمًّا، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا
يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.
فَلْيَعْتَنِ اللَّيْبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اللَّهِ، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ
ظَنًّا سَوْءًا.

وَلَوْ فَتَشَّتْ مَنْ فَتَشَّتْ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَى الْقَدْرِ وَمَلَامَةً لَهُ وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي
أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا؛ فَمُسْتَقِيلٌ وَمُسْتَكْتَبٌ، وَفَتَشَّ نَفْسُكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟
فَإِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجَّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِحَالَكَ نَاجِيًا»^(١).



الشرح:

ذكر المؤلف رَحْمَةً لِلَّهِ فِي هَذَا الْبَابِ آيَتَيْنِ وَنَقَلَا عَنْ ابْنِ الْقَيْمِ رَحْمَةً لِلَّهِ.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:



(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٠٥ - ٢١١)، باختصار.

الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

أن المؤمن إذا استقر التوحيد في قلبه؛ أورث له ذلك تعظيماً لربه في ذاته وصفاته وأفعاله، ومن آثار ذلك حسن الظن بهذا الرب العظيم الذي أزمته الأمور بين يديه، وتدبير الخلق راجع إليه، ولا يجتمع التوحيد الصحيح مع سوء الظن بالله - تعالى - .



الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

المبحث الأول: معنى سوء الظن:

سوء الظن: التهمة والتخون في غير محله.

وأضيف الظن في القرآن إلى السوء، كما في قوله تعالى: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنًّا سَوْءًا عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]، وأضيف إلى الجاهلية، كما في قوله تعالى: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

أولاً: ظن السوء:

سوء الظن نوعان: سوء ظن بالله - تعالى -، وسوء ظن بالخلق. والمراد هنا الأول، والثاني يذكر في باب الآداب والأخلاق.

ونقل المؤلف عن ابن القيم تفسير طويلاً له، وخلاصة ما ذكر ابن القيم في تفسير ظن السوء ثلاثة أمور:

الأول: أن يظن أن الله يُدِيل الباطل على الحق إدالة مُسْتَقِرَّة يَضْمَعِل معها الحق. وهذا هو ظن المشركين والمنافقين في سورة الفتح، قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢].

الثاني: أن يُنْكِر أن يكون ما جرى بقضاء الله وقدره؛ لأنه يتضمن أن يكون في ملكه - سبحانه - ما لا يريد، مع أن كل ما يكون في ملكه فهو بإرادته.

الثالث: أن يُنكر أن يكون قَدْرُهُ لحكمة بالغة يستحق عليه الحمد؛ لأن هذا يتضمن أن تكون تقديراته لعبا وسفها، ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا يقدر شيئا أو يشرعه إلا لحكمة.

وضابط أنواع الظن السيئ بالله: أن يظن بالله ما لا يليق به.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أكثر الخلق - بل كلُّهم، إلا من شاء الله - يظنون بالله غير الحق ظن السوء؛ فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله... ولو فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَهُ لرأيت عنده تَعَبُّبًا على القدر وملامة له واقتراحا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمُسْتَقِيلٌ ومستكثر، وفتش نفسك، هل أنت سالم من ذلك؟ ... فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضوع ...

فلا تَظُنَّ بربك ظنَّ سَوِّءٍ فَإِنَّ اللهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ»^(١).

وبعض الناس تغلبهم النزعة السوداوية، وسوء الظن والتشاؤم، فيظن أنه يعمل الصالحات، ويتقرب إلى الله بأنواع الطاعات، لكن يقع في قلبه أن الله لا يقبل منه شيئا! وهذا ظن سَوِّءٍ بالله، ويظن أن الله لا يُثِيبُهُ ولا يرحمُهُ، ولا يغفر له، ويظن أن المسلمين لا ينصرهم الله، ولا يُمَكِّنْ لهم، ونحو ذلك، وهذا كله من الظن السيئ.

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢١١).

ثانيا: ظن الجاهلية:

الجاهلية من الجهل، وهو نقيض العلم. والجهل بسيط ومركب.

أقسام الجاهلية:

تنقسم الجاهلية - باعتبار الزمن - إلى قسمين:

أولا: الجاهلية الأولى: وهي الحال التي كان عليها الناس قبل الإسلام، وفي

أوائل البعثة.

ثانيا: الجاهلية الأخرى: وهي الامتناع من التزام دين الله أو شيء منه.

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: «ويمكن أن يراد بالجاهلية الأخرى: ما يقع في

الإسلام من التشبه بأهل الجاهلية بقول أو فعل»^(١). كما قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَنْ قُتِلَ تَحْتَ

رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَدْعُو عَصِيَّةً، أَوْ يَنْصُرُ عَصِيَّةً، فَقَتْلُهُ جَاهِلِيَّةٌ»^(٢).

وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ

مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(٣).

ولما عَيَّرَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَجُلًا بِأُمَّه، قَالَ لَهُ النَّبِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ

جَاهِلِيَّةٌ»^(٤).

(١) «فتح القدير» (٤/٢٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٥٠)، من حديث جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٥١)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠ و ٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١)، من حديث المعرور بن سويد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فجاهلية المطلقة المطبقة لا تكون بعد بعثة النبي ﷺ؛ لقوله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ»^(١).

وأما بعد البعثة فجاهلية مقيدة بأمر أو مكان.

والتلبس بشيء من خصال الجاهلية قد يصل إلى الكفر، وقد يكون من قبيل المعصية بترك واجب أو فعل محرّم لا يصل إلى الكفر.

ومنه قوله ﷺ لأبي ذر: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»^(٢)، وكذا الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة على الميت^(٣)، ونحو ذلك.

وقول الله - تعالى - : ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، المراد بالآية: المنافقون، وهي في سياق غزوة أحد.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧) واللفظ له، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ينظر: صحيح مسلم، رقم (٩٣٤).

فأولئك أساؤوا الظن بربهم وبدينه وبنبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن الإسلام لن تقوم له قائمة، ولذلك تراهم نادمين على خروجهم، يقول بعضهم لبعض: «هل كان لنا من اختيار في الخروج للقتال؟!».

«فقد ذهبت بهم هواجسهم إلى أن ظنوا بالله ظنوننا باطلة من أوهام الجاهلية. وفي هذا تعريض بأنهم لم يزالوا على جاهليتهم لم يخلصوا الدين لله»^(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وإنما كان هذا ظن السوء، وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظن غير الحق؛ لأنه ظنُّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرّاة من كل عيب وسوء، بخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفردّه بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعدّه الصادق الذي لا يخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسوله أنه ينصرهم ولا يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون»^(٢).

وقال سبحانه، في عاقبة من ظن به السوء: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكَمُ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٢ - ٢٣].

(١) «التحرير والتنوير» (٤/١٣٥).

(٢) «زاد المعاد» (٣/٢٠٥).

وقال في بيان عاقبته وعقوبته: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

قال الشيخ العصيمي في شرحه: «وأكثر ظن السَّوْءِ عند المنافقين الأولين في الحُكْم
القدرى، وأكثر ظن السَّوْءِ عند المنافقين المتأخرين هو في حُكْم الله الشرعي».

○○○

المبحث الثاني: حكم سوء الظن:

ينقسم سوء الظن إلى قسمين:

الأول: سوء الظن المعتبر:

هو الظن الذي استقر في النفس، وصدَّقه صاحبه، واستمر عليه، وتكلم به،
وسعى في التحقق منه. وهو نوعان:

١ - سوء الظن المحرم:

ويشمل سوء الظن بالله - تعالى -، وسوء الظن بالمؤمنين.

فسوء الظن بالله - تعالى - من أعظم الذنوب. قال ابن القيم: «أعظم الذنوب عند الله: إساءة الظن به»^(١). وقال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»^(٢).

٢ - سوء الظن الجائر:

ويشمل: سوء الظن بالكافر، وبمن اشتهر بين الناس بمخالطة الرِّيب، والمجاهرة بالمعاصي^(٣).

الثاني: سوء الظن غير المعتبر:

وضابطه: أنه الخواطر الطارئة غير المستقرة التي يجاهدها صاحبها ولا يسعى للتحقق منها.

وهذا معفو عنه؛ لقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»^(٤).

○○○

(١) «الداء والدواء» ص ٣١٨.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٤٣) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٥٦٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) قال ابن عثيمين في «الشرح الممتع» (٣٠٠/٥): «يُجْرَمُ سوء الظن بمسلم، أما الكافر فلا يجرم سوء الظن فيه؛ لأنه أهل لذلك، وأما من عُرف بالفسوق والفجور، فلا حرج أن نسيء الظن به؛ لأنه أهل لذلك، ومع هذا لا ينبغي للإنسان أن يتتبع عورات الناس، ويبحث عنها؛ لأنه قد يكون متجسساً بهذا العمل».

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢٦٩) وفي مواضع أخرى، ومسلم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المبحث الثالث: آثار سوء الظن بالله - تعالى :-

الأول: سبب للوقوع في الشرك والبدعة والضلال:

سوء الظن بالله سبب في الوقوع في الشرك، قال ابن القيم: «الشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله - تعالى - ... لأن الشرك هضم لحق الربوبية، وتنقيص لعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين، ولهذا قال إبراهيم إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين: ﴿أَيْفَاكَ عَالِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾» [٨٦-٨٧] (١).

قال المقرئزي: «اعلم أنك إذا تأملت جميع طوائف الضلال والبدع وجدت أصل ضلالهم راجعا إلى شيئين. أحدهما: الظن بالله ظن السوء» (٢).

الثاني: سبب في الخسارة، واستحقاق لعنة الله وغضبه:

قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَذَالِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣].

الثالث: من أساء الظن أساء العمل:

(١) «إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان» (٦٢/١).

(٢) «تجريد التوحيد»، ضمن رسائل المقرئزي (١/١٠٢).

تلا الحسن البصري قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَأَكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣]، فقال: «إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم؛ فأما المؤمن فأحسن بالله الظن، فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساء الظن فأساء العمل»^(١).

سوء الظن بالله - تعالى - أمره خطير، وعاقبته وخيمة.



(١) «تفسير الطبري» (٢٠ / ٤١٣).

٥٩- باب

ما جاء في منكري القدر

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أَحَدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ»، ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الإِيَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: أَكْتُبُ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) واللفظ له، والترمذي (٢١٥٥ و ٣٣١٩)، وصححه

الألباني.

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ - تَعَالَى - الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهَبٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ»^(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ، قَالَ: «أَتَيْتُ أَبِي بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ الْقَدْرِ؛ فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي. فَقَالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَحَدِيفَةَ بْنَ الْيَمَانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ»^(٣). حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ.

○○○

(١) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧٠٥)، وصححه الأرنؤوط.

(٢) أخرجه ابن وهب في «القدر» (٢٦).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد (٢١٥٨٩)، وصححه

الألباني. ولم أقف عليه عند الحاكم.

الشرح:

ذكر المؤلف رَحْمَةً أَللَّهُ فِي هَذَا الْبَابِ ثَلَاثَةَ أَحَادِيثَ، وَثَلَاثَةَ آثَارٍ.

والكلام على هذا الباب في الفصلين التاليين:



الفصل الأول: مقصود الباب، وموضوعه العام

الإيمان بالقضاء والقدر ركنٌ من أركان الإيمان، متعلق بربوبية الله، فإن من أنكر القدر فقد وقع في شرك يتعلق بالربوبية؛ لأن تقدير الأشياء وقضاءها من أفعال الله - تعالى - .



الفصل الثاني: المباحث الموضوعية

مباحث الإيمان بالقضاء والقدر طويلة، ماثوثة في كتب العقائد، والذي يهم الحديث عنه هنا:

المبحث الأول: تعريف الإيمان بالقضاء والقدر، وأدلته:

الإيمان بالقضاء والقدر: هو الإيمان بتقدير الله - تعالى - للكائنات حسب ما سبق به علمه، واقتضته حكمته.

ودل عليه: الكتاب، والسنة، والإجماع.

أما أدلة القرآن الكريم: فكثيرة جدا؛ ومنها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وأما السنة: فمنها ما جاء في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الطويل، وفيه قوله ﷺ: «لما سئل عن الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

وأجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره.

○○○

(١) تقدم تخريجه.

المبحث الثاني: مراتب الإيمان بالقضاء والقدر :

المرتبة الأولى: العلم:

وهو: الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملة وتفصيلا ماضيا ومستقبلا، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله، أو بأفعال عباده، أو بما يجري في الكون، فعلمه محيط بما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

والأدلة على هذا المرتبة كثيرة جدا، قال الله - تعالى - : ﴿عَلِمَ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

المرتبة الثانية: الكتابة:

وهي: الإيمان بأن الله كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ. قال الله - تعالى - : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»^(١).

المرتبة الثالثة: المشيئة:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٥٣).

وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون ولا هداية، ولا إضلال إلا بمشيئته.

قال الله - عز وجل - : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

المرتبة الرابعة: الخلق:

وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة بذواتها وصفاتها، وحركاتها، وأفعالها، وبأن كل من سوى الله مخلوق مُوجَد من العدم، كائن بعد أن لم يكن.

والأدلة على هذه المرتبة كثيرة جدا؛ منها قول الله - تعالى - : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

ومما يدخل في هذه المرتبة: أفعال العباد؛ فهي داخلة في عموم خلقه - عز وجل - فهي من الله خلقاً وإيجاداً وتقديراً، وهي من العباد فعلاً وكسباً، فالله هو الخالق لأفعالهم، وهم الفاعلون لها. قال تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]، وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦].

وقد جمعت هذه المراتب الأربع في قول الناظم:

عِلْمٌ كِتَابَةٌ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ وَخَلْقُهُ، وَهُوَ إِجَادٌ وَتَكْوِينٌ

○○○

المبحث الثالث: أنواع التقدير:

ينقسم التقدير الإلهي باعتبار عمومته وخصوصه إلى أربعة أقسام:

الأول: التقدير العام:

وهو تقدير الرب لجميع الكائنات، بمعنى: علمه بها، وكتابتها لها. ويدل على هذا النوع أدلة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقال النبي ﷺ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»^(١).

الثاني: التقدير العمري:

وهو تقدير خاص لكل عبد بما يجري عليه في حياته إلى نهاية أجله، وكتابة شقاوته أو سعادته. وقد دل على ذلك قول النبي ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ»^(٢).

(١) تقدم تحريجه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٠٨) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٦٤٣)، من

حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الثالث: التقدير السنوي:

وذلك في ليلة القدر من كل سنة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

قيل في تفسيرها: يكتب فيها - أي في ليلة القدر - ما يحدث في السنة من موت وحياة، وعز وذل، ورزق ومطر، حتى الحجاج، يقال: يحج فلان، ويحج فلان.

الرابع: التقدير اليومي:

ويدل عليه قول الله - تعالى -: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].
قيل في تفسيرها: شأنه أن يعز ويذل، ويرفع ويخفض، ويعطي ويمنع، ويغني ويؤفق، ويضحك ويبكي، ويميت ويحيي إلى غير ذلك.

○○○

المبحث الرابع: هل الإنسان مسير أو مخير؟

الإنسان مخير باعتبار، ومسير باعتبار.

فهو مخير باعتبار أن له مشيئة يختار بها، وقدرة يفعل بها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقوله: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ولقوله ﷺ: «أَحْرَضَ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ...»^(١) الحديث.

إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة في هذا المعنى.

وهو مسير باعتبار أنه في جميع أفعاله داخل القدر، راجع إليه؛ لكونه لا يخرج عما قدره الله له؛ فلا يخرج في تخير عن قدرة الله؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].
ولقوله ﷺ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»^(٢).

ولهذا جمع الله بين هذين الأمرين - كون الإنسان مخيرا باعتبار ومسيراً باعتبار - كما في قوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۗ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩].

فأثبت عز وجل أن للعبد مشيئة، وبيّن أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، واقعة بها.



(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

